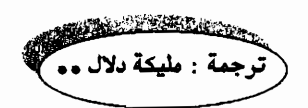

المنظومة
ALMANDUMAH



الزوايا والطوائف الدينية بالمغرب

Jules ERKMANN*



I الـزوايـا

عندما يلبي شخص معروف بصلاحه، أو كما يقول العـرب متعلقـا بـالله (مربوط) داعي ربه. يقيم مريدوه لجثته قبرا مقببا، يصبح مـزارا يقصـده النـاس للزيارة. وأحيانا تشيد كذلك قبب تقديرا لصلحاء وافتهم المنيـة بعيـدا فـي بـلاد الغربة.بجوار هذه القبب، تشيد مؤسسات دينية تدعى الزاوية. وهـي مكـان يشـبه الأديرة. يتوفر على جناح لأداء الصلاة، وآخر للتدريس والتعليم، وجناح لاسـتقبال ضيوف الرحمان.

وقد تطورت بعض الزوايا مع مرور الوقت إلى أن شكلت نوعا من القرى. تصبح الزوايا الكبرى ـ في سياق تطورها ـ حرما يلجأ إليه الأشخاص المتـابعين أو المطلوبين. والذين يلجأون إلى الزاوية طالبين للحرم (مزاوك). ويحصل الفـرد عادة على صفة مزاوك mzaoug بالإنحناء أمام رجلي فرس شـخص لـه مكانـة متميزة، أو بالتشبث بعجلة أحد المدافع. غير أن هذه الملاذات ليست سوى لحظيـة في حين أن الطالب للحرم (المزاوك) بالزاوية، يحل بها ضيفا لمدة ثلاثة أيام ويمكـن أن يمكث بها المدة التي أراد، ويعيش بين ظهرانيها حسب رغبته. وتعتـبر نسـبة الأشخاص الذين يتخذون من زاوية مولاي إدريس بفاس حرما، نسبة مهمة جدا،

---

* Jules ERKMANN . Le Maroc moderne .Chalmal Aine 1885 PP97-112

** أستاذة باحثة من الدار البيضاء .

لهذا فإن عملية نصب الفخاخ لأحدهم، قصد إلقاء القبض عليه كانت تتم عبر قطع الطريق المؤدية نحو هذا الملاذ.

ورغم ذلك نجد يوميا بمولاي ادريس جنودا هاربين من العقاب، وقيادا مهددين بالعزل، وأعرابا قدموا التماسا للسلطان، خائفين من الزج بهم في السجن قبل وصول التماسهم.

II الطوائف الدينية

كثيرة هي الطوائف الدينية بالمغرب، ونصف ساكنة المدن على الأقل منضوية تحت لواء إحدى الطرق. كما أن كل طائفة تكون مرتبطة بإحدى الزوايا القائمة إما في المغرب أو في أحد البلدان الإسلامية الأخرى.

ويتخذ موقع هذه الزوايا المخصص لممارسات هذه الطوائف، اسم رباط وينعث المنتمون إليه باسم مربوط merbout (ينتمي إلى طريقة من الطرق). ولكل طريقة رئيس ينحدر عادة من أحد عائلات الصلاح، ويحمل اسم خليفة، يعمل تحت إمرته شيوخ ومقدمون.

وعلى العموم فكل طريقة من الطرق تكون موزعة إلى عدد من الفروع.

*** الورد**

يتم الانتساب إلى طريقة من الطرق على الشكل التالي :

يقصد المريد رباط الطريقة التي وقع اختياره عليها، فيقدم بين يدي الشيخ طلبا للانضمام مصحوبا بهبة معينة. ومقابل ذلك يلقنه الشيخ الورد، أي الدعوات التي يجب عليه ترديدها، باستعمال السبحة، في أوقات محددة، والشعائر الدينية التي عليه ممارستها يوميا. وتتمثل هذه الممارسات بإجمال، في الالتحاق بالرباط وترديد الورد بتحريك الرأس من أعلى إلى أسفل بانسجام مع ضربات طبل. ويعتقد المسلمون أنهم بممارستهم هذه الشعائر سيجاورون الولي الصالح بعد وفاتهم، ومن ثمة تكون الجنة مأواهم. أما الراغبون في التمتع بحماية أكثر من ولي فعليهم حفظ أوراد متعددة، وقضاء جزء كبير من حياتهم في ترديدها مع استعمال السبحة.

وأكثر الطرق انتشارا بالمغرب هي :

* - **طريقة مولاي عبد القادر الجيلالي** : (المنتسب إلى بغداد)، وهي طريقة معروفة لدى المذاهب الاسلامية الأربعة، ويعتبر سلطان اسطمبول من بين المنتمين لها، ويعرف أتباعها بنعت " القادري " أو " الجيلالي " حسب الجهة التي تلقوا فيها الورد، في الشمال أم في الجنوب، إلا أن ما يميز الجيلاليين عن القادريين هو كون الأولين يمارسون شعائرهم بصوت أخفت من إخوانهم.

وإلى هذه الطريقة ينتمي :

طريقة سيدي المختار الكونتي : المزداد بتومبوكتو، ولهذا الولـــي أتبـــاع كثــيرون بالصحراء. وينحدر المختار الكونتي من سلالة بني أمية، من الفرع الذي ينحدر منه اليزيد قاتل الحسين بن علي.

طريقة مولاي احمد التيجاني : التي تنتشر ببلاد السودان الغربي، وتتـــافس هنـــاك طائفة المختار الكونتي. ويتمثل الورد التيجاني في ترديد شعائر تسمى " الوضيفـــة " ouadifa، صباحا مساءا، وقوفا على غطاء أبيض مضاء بواسطة مشعل.

* **طريقة مولاي الطيب** : ينعت أتباع مولا ي الطيب بالتواهمة (نسبة إلـــى ســيدي التهامي أخ مولاي الطيب) ولهذه الطريقة تأثير كبير في الجزائـــر، وفـــي شـــمال المغرب، وفي سوس، وورد الطريقة التهامية قصير جدا. تأسست هذه الطريقة علـــى يد مولاي ادريس، وعمل أحد المنحدرين من سلالته وهو مـــولاي الطيـــب علـــى تقويتها بتأسيس مدرسة دار الضمانة بتارودانت بسوس. وقد نعتـــت دار الضمانـــة بهذا الاسم تلميحا لقدرة أتباع مولاي الطيب على تحمل خطايا المؤمنين.

* **الطريقة الدرقاوية** : وتنقسم إلى عدد من الفروع نذكر منها فرعان : شيخ الأول هو مولاي العربي الدرقاوي (دفين بوبريح bouberreh بجبل بنـــي زروال) وشـــيخ الفرع الثاني هو البدوي، الذي خلفه بعد وفاته محمد بن العربي، وهو شريف علـوي يقيم بمدغرة(تافيلالت)، ويحمل أتباع البدوي من الدرقاويين عمامة خضراء وتتمـــيز الطريقة الدرقاوية بخطورتها الكبرى، ومن ذلك أن مجموعة من أتباع هذه الطريقـــة حاولت سنة 1845 الاستيلاء على مركز سيدي بلعباس بالجزائر.

* **ســـيدي محمد بن عبد الله الـــصادقي**: ويعرف أتـــباعه بالصادقيين وعددهـــم كثير بتافيلالت.

* **الصقلـــيون بـــفاس**: وتشترك الطائفتين الأخيرتين مع طائفة مولاي الطيب في الـــتميز بأن شيوخها يجمعون بين الانتماء للـــنسب الشريف وصفة الـــولاية فـــي نفس الآن.

* **طريقة سيدي محمد بن ناصر**: وهي طريقة معروفة جدا بمنطقة وادي درعـــة ويعتنقها عدد كبير من الحراطين.

* **طريقة مولاي محمد بن عيسى**: ويتمركز إشعاعها الكبير بمكناس، ويطلق علـــى اتباعها نعت عيساوة. وقد اشتهر العيساويون الأوائل بقدرتهم علـــى إشـــفاء لذغـــة الأفاعي السامة، كما أصبح بعضهم مروضا للأفاعي السامة مستجيرا ببركة ســـيدي عيسى التي تحميه من لذغها.

والأفعى ثعبان قصير، جد معروف بسوس. يتم قنصه بواسطة الدخان، قبـل أن يتم الإمساك به من رأسه بدراية خاصة. وجعله يعض في البصل لنفـــت ســـمه وأحيانا يتم ربطه من ظهره بطريقة طولية بواسطة إبرة رقيقة غير مرئية بالنســـبة للفضوليين السدج، ومنعه من الارتماء عليهم. إلا أنه ورغم بركة سيدي عيسى، فقد تقع بعض الحوادث، إذ تعرض بعض عيساوة للذغات الأفعى في اللحظـــة التـــي

حاولوا فيها إخراجها من السلة التي توجد بها، فوقعوا مصعوقين، فاسحين المجال لهروب الأفاعي الأخرى التي تتسرب إلى أوساط الساكنة محدثة رعبا بين النساء بحفيفها المخيف(يبدو أن هذا الحيوان –الأفعى- يخاف الإنسان). وخلال فترة المولد يطوف عيساوة بأرجاء المدن جماعات، وفي هذا التجوال يقومون بأعمال منها بقر بطون الأغنام حية دون الاستعانة بأية أداة ويلتهمونها في الحين، كما يفترسون أيضا الكلاب، والقطط الخ ... التي تمر أمامهم في الطريق.

* **طائفة مولاي علي بن حمدوش:** تتموضع زاوية هذه الطائفة بجبل زرهون قرب مكناس، أسسها مولاي علي بن حمدوش، وينعت أتباعها بالحمادشة وهم طائفة عرفت واشتهرت بصلابة جمجمة مريديها، فهم يرمون كرات المدافع إلى أعلى ويتلقونها برؤوسهم، كما يستطيعون إمطار رؤوسهم بوابل من ضربات الفؤوس دون أن يصابوا بأذى كبير رغم أن خفة الفأس وبركة سيدي حمدوش لا تمنع من سيلان الدم على وجوهم.

وخلال عيد المولد، ومثلهم مثل عيساوة، كان حمادشة يجوبون المدن وبإمكانك أن تصادف مجموعة عيساوة ملطخين بدماء أحشاء الحيوانات التي افترسوها، كما بإمكانك أن تصادف مجموعة حمادشة بلباسهم الأبيض الملطخ ببقع حمراء. وفي حالة التقاء الجماعتين مع بعضهما في نفس النقطة تحدث مشاهد يعجز المرء عن وصفها.

* سيدي الرازي: وله عدد كبيرمن الاتباع بمنطقة وادي درعة.

* سيدي علي مبونو: مشهور جدا بمنطقة تافيلالت، وإليه تنسب المعجزة التالية: بينما هو جالس جنب أحد الحيطان، علم بأن قبيلتين تقتتلان، فانتقل من فوره إلى مكان الاقتتال صحبة جداره الذي فصل بين المتحاربين. عرف أتباع سيدي مبونو بتسلقهم النخيل، واحتكاكهم بأشواكه وهم عرايا يتضرعون إلى مولاي محمد ويعتقد هؤلاء الاتباع أن أي نخلة وخزهم شوكها لن تثمر.

وهناك طوائف أخرى، إلا أنها أقل انتشارا من السابقة، ونذكر منها :

* مولاي احمد بوطالب بمليانة(الجزائر): ويشتهر أتباعه بمداعبة النار.
* سيدي علي بن ناصر : ولي الرماة بالمغرب .
* سيدي الشيخ بن احمد البيوض (الجزائر).
* سيدي بن داود بفشتالة قرب تطوان.
* سيدي واسمين الركراكي ببلاد الشياظمة.
* سيدي محمد بوزيان بقصر القنادسة (المغرب).
* سيدي احمد بن الكبير، بزاوية كرزاز بوادي غير.

وهاتان الطائفتان الأخيرتين منتشرتان بالجزائر أكثر من المغرب .

* **سيدي احمد السنوسي**، بطرابلس الغرب : وتتعاطف هذه الطائفة مع المشارقة وتعتبرهم جد متحضرين، بينما تدين الأتراك لأنهم تبنوا بعض عادات الغرب.وليس

لهذه الطائفة بالمغرب إلا اتباعا قلائل، كما أن مساهمتها في الإصلاح الديني منعدمة لأن الإسلام في موطنها يطبق بتشدد.

وفي الأخير نشير إلى طائفة الوزيريين ouiziriin بفاس وتشكل مجتمعا منغلقا، لا يعرف أي أجنبي عن الطائفة قوانينها، ويشتغل أعضاؤها في سرية تامة. ويظهر أن للوزيريين مبعوثين في كل مكان.

III أولياء بدون طوائف

يعتبر مولاي ادريس ولي مدينة فاس، فهو مؤسسها وابن من أدخل الديانة الإسلامية إلى المغرب.

وللمغرب سبعة أولياء ينعتون ب سبعة رجال وهم :

سيدي بلعباس – مول القصور – السي سليمان الجزولي – سيدي عبد العزيز – سيدي سليمان المزويلي – سيدي احمد السوسي – سيدي يوسف بن علي.

ويعتبر سيدي بلعباس أهم هؤلاء جميعا. فهو ولي التجار ويتضرع به المتسولون كثيرا بترديد هذه الكلمات : " يامؤمنين : من رغب في البيع، ومن رغب في الشراء، يمنحني صدقة إرضاء لسيدي بلعباس سيد البيع والشراء وسيد البر والبحر".

كان سيدي بلعباس يقيم في سبتة قبل قدومه إلى مراكش، ولما تنبأ بسقوط هذه المدينة في يد المسيحيين باعها ليهودي مقابل خبزة، حتى لا يقال بأنها سلبت من المسلمين. ولما توجه إلى مراكش استقر بجبل " كليز "، وأصبحت له زاوية لا تقل أهمية عن زاوية مولاي ادريس.

وقد عرف سيدي بلعباس بعريه، والتصدق بملابسه على الفقراء، كما تنسب له مجموعة من الكرامات. ولما وصل هذا الولي إلى مراكش، كان بالمدينة عدد مهم من الصلحاء ذوي مكانة محترمة، ومن أجل مكانة بين هؤلاء ملأ سيدي بلعباس قدحا بالحليب وعكسه نحو الأرض دون أن تسقط منه قطرة على التراب فاعتبر ذلك أحد كراماته التي ساهمت في ذيوع صيته. وتروي الروايات أن أهل مراكش وجهوا إلى السلطان شكاية مكتوبة ضد سيدي بلعباس يتهمونه فيها بالتحرش بفتياتهم، فاستدعاه السلطان، ووضع الشكاية بين يديه مغلقة طالبا منه الاطلاع عليها، فأكد سيدي بلعباس صحة ما جاء فيها وردها إلى السلطان، لقد غير اللوم إلى ثناء، فانسحب الواشون به وهم صاغرون.

إن أهل المغرب مؤمنون بأن الموت لم ينقص شيئا من قدرة سيدي بلعباس. ويحكون في هذا السياق حكاية تقول : إن باخرة فرنسية فاجأتها عاصفة كادت أن تصدمها برصيف، لولا أن أحد التجار المغاربة، الذي كان على ظهر الباخرة، رمى خنجره في البحر طالبا نجدة سيدي بلعباس، الذي لبى دعوته وهدأ فورا تلك

العاصفة. وبعد زمن على هذه الحادثة، وبينما كان القيمون على صندوق سيدي بلعباس للصدقات يفتحونه، وجدوا بداخله خنجرا ذلك المسافر.

أما مول القصورفخصوصيته هي منح إجازات الصلاح، لهذا ينعت بمول الطابع وقد عرف هذا الولي بعدم التساهل مع من يقسم باسمه كذبا، إذ ينتقم منه بإفقاده لحاسة البصر.

والسي سليمان الجزولي: هو الذي كتب " دليل الخيرات " الذي يعتبر كتاب صلوات.

وولي مكناس هو سيدي بنعيسى. بينما ولي تارودانت هو سيدي او سيدي. وولي سوس هو سيدي احمد أو موسى.وولي تافيلالت هو مولاي علي الشريف.

وخارج إطار هذه المجموعة من الصلحاء الأولياء توجد مجموعات أخرى نذكر من بينها : مولاي يعقوب الذي تتموضع زاويته قرب فاس بجوار عين كبريتية، يخرج منها ماء ساخن يشفي عدة أمراض، ويقصده أساسا الجنود المصابون بالمرض الخبيث. يوجد بمولاي يعقوب حوضان أحدهما للرجال والآخر للنساء، ومن الحوض الأول ينساب الماء نحو الثاني، وحتى لا يحترق المستحمون في الحوضين بالمياه الساخنة يجب عليهم ترديد جملة " بارد وسخون" .

ونذكر أيضا سيدي جابر الذي يكفي المرء المبيت ليلة واحدة بزاويته صحبة آلة الكنبري الموسيقية ليصبح عازفا صبيحة اليوم الموالي.

ويعتقد المغاربة المسلمون بالعين الشريرة " العين" وبالأرواح اللامرئية "الجن"، كما يعتقدون بأن الليل هو وقت نشاط وحركة الجن، لهذا يتحاشون القيام بعدد من الأعمال ليلا تفاديا لإثارتهم.